EDITORIAL

عبد القاهر الجرجاني وإرهاصات المنهج البنيوي

*د.عبد العليم محمد إسماعيل علي

المستخلص

هدف البحث إلى بيان بلوغ النقد العربي القديم مرحلة من النضج أعانته على صياغة مناهج عميقة أثبتت الدراسات الحديثة علميتها، وذلك من خلال فتوحات "عبد القاهر الجرجاني" الذي استطاع أن يسبق البنيوية الحديثة إلى اكتشاف أهم مقومات المنهج البنيوي. وقد افترض البحث أنّ منهجية عبد القاهر الجرجاني في نظريته (النظم) هي أول تفكير بنيوي، في النقد الأدبي، مكتمل الملامح. ولبلوغ هذا الهدف وإثبات فرضياته استخدم الباحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي. وقد توصل البحث إلى أنّ "عبد القاهر الجرجاني" سبق البنيويين، في العصر الحديث، إلى أهم ركائز البنيوية التي تتمثل في: العلاقات، والكلية، والتحولات. كما سبقهم إلى أهم مفاهيمها عن الدال والمدلول واعتباطية العلاقة بينهما، والإشارة، واللغة والفكر، واللغة والكلام، ونوّه الباحث إلى أهمية إعادة قراءة التراث العربي بعد التطور الذي حدث في المناهج الدراسية والفكر النقدي؛ وذلك لاكتشاف القيمة الحقيقية لهذا الموروث الثر.

* * أستاذ مساعد ، كلية الآداب و الدراسات الإنسانية ، جامعة كردفان ، السودان.

EDITORIAL

مقدمة:

أحدث الإسلام تحولاً جذرياً في حياة العرب، فقد أسهم في تحويلهم من البداوة والترحال إلى التمدن والاستقرار، ومن المشافهة والارتجال إلى التروّي والتدقيق وتنضيد الأفكار. وفتح لهم خط شروع جديد للنمو والتطور اللذين بلغا ذروتهما في العصر العباسي؛ حيث بلغ الفكر العربي مرحلة أهلته إلى إنتاج معارف ونظريات علمية شكّلت فتحاً معرفياً في جميع الحقول. وقد أخذ النقد الحظ الأكبر من هذا الإسهام؛ فظهرت نظريات نقدية ومفاهيم معرفية سبقت أعرض تيارات النقد في القرن العشرين الميلادي. ومن أشهر هذه النظريات نظرية "النظم" عند "عبد القاهر الجرجاني"*. فقد سبقت التيار البنيوي إلى أهم المفاهيم والأسس التي غيّرت طرائق تفكير الإنسان في العصر الحديث. وتأتي هذه الدراسة للوقوف عند هذا الكشف البنيوي الذي لم تنسبه الدراسات الحديثة إلى صاحبه " عبد القاهر الجرجاني".

ماهي البنيوية؟

شغلت البنيوية قدراً كبيراً من فكر القرن العشرين وفلسفته، فقد أصبحت المفردة الأكثر تمدداً في حقول الدراسات الإنسانية والعلمية، كما أنها أوقعت كثيراً من الباحثين في حيرة؛ فالبعض اعتبرها فلسفة موت الإنسان[1]، وبعض الفلاسفة اعتبرها ردة فعل طبيعية ضد المنطق الذري الذي ساد الفكر البشري مؤخراً [2]، ومنهم من اعتبرها مذهباً، ومنهم من اعتبرها منهج بحث...إلخ.

ومهما ذهبت الاتجاهات في تفسير المنحى البنيوي، وتشعبت الآراء – فإنها تلتقي حول أسس محددة؛ تصنف من ينطلق منها كونه بنيوياً*. فالبنيوية، في الممارسة، هي مجموعة من المبادئ والإجراءات المتبعة في دراسة ظاهرة معينة؛ فهي كما يذهب "جون ستروك" منهج بحث وليست مذهباً، لأنّ الإنسان، في رأيه، لا يمارس طقوساً بنيوية "وليست ثمة نوادٍ ليلية بنيوية على الجانب الأيسر من النهر، وليس ثمة ملابس بنيوية تُرتدى، أو أسلوب حياة يتبَّع، لأنّ البنيوية ما هي إلا منهج بحث، طريقة معينة يتناول بها الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل معين من حقول المعرفة، بحيث تخضع هذه الحقول إلى المعايير البنيوية"[3] .

وقد شهدت البنيوية تطبيقات في عدة مجالات: اللغة والنقد، الأنثروبولوجيا، السايكولوجي، علم النفس، الرياضيات...إلخ. إلا أنّ جميع هذه الحقول لم تُخِل بتماسك البنيوية باعتبارها اتجاهاً؛ فقد ظلت محافظة على مبادئها الأساسية التي تتضح في خمسة مبادئ عامة هي:

1- أسبقية الكل على الأجزاء:

تنظر البنيوية إلى الظاهرة المدروسة باعتبارها كلاً متماسكاً؛ وهذا الكل ليس هو محصلة جمع العناصر المكونة له، وإنما هو نسق محكم يشكِّل نظاماً يؤدي وظيفته انطلاقاً من تفاعل وحداته. فالبنيوية لا تنظر إلى العناصر منعزلة؛ لذا نجدها، كما يذهب "جان بياجيه"،

---

* هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني(ت 471هـ) ، فارسي الأصل، أشعري المذهب، له مؤلفات في النحو، أهمها "العوامل المئة النحوية في أصول علم العربية". وشهر بكتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

1 أنظر: البنيوية فلسفة موت الإنسان، رجاء جارودي، ترجمة جورج طرابيشي، ط3.دار الطليعة للطباعة والنشر، 1985م

2 أنظر: دليل الناقد الأدبي ، د. مجان الرويلي ، ود. سعد البازعي، ط2. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، 2002م، ص7

* أرجع الباحثون الغربيون نشأة البنيوية إلى العالم اللغوي السويسري(فرديناند دو سوسور، 1857– 1913م) من خلال أبحاثه التي جمعها طلابه في كتاب " مبادئ علم اللغة العام، وإلى الشكلانيين الروس، وخاصة " رومان ياكوبسون، 1896– 1982م)؛ وذلك في المؤتمر الذي عقد في لاهاي سنة 1928م، حول علوم اللسان. فاستقرت مبادي البنيوية باعتبارها منهجا ينطلق من مفاهيم محدودة يمكن تطبيقها في مجالات متعددة.

3 البنيوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى دريدا، تحرير جون ستروك، ترجمة د. محمد منصور، سلسلة عالم المعرفة، ط. المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، كتاب 206، 1996م، ص7.

EDITORIAL

قد تجاوزت الأبحاث التطورية التي تدرس العناصر بصورة منعزلة، فهي تعمد إلى طريقة المجموعات للنظام اللغوي المتزامن[4]. والبنيوية تستهدف كشف البنية التي تخضع إلى قوانين المجموعة كمجموعة، وهذه المجوعة لا تقف عند حدود الروابط التراكمية، وإنَّما تضفي على الكل خصائص المجموعة المغايرة لخصائص العناصر[5].

فالكلية هي النقطة المركزية لدراسة أية ظاهرة من منظور بنيوي، وهي دراسة لا تعالج الظاهرة باعتبارها تكتلاً آلياً، بل تعالجها، كما يذهب "ياكبسون"، ككلٍّ بنيويٍّ. وتتجه مهمة الدراسة، في هذا المنحى، إلى الكشف عن القوانين الداخلية للظاهرة باعتبارها نظاماً[6]. ومفهوم الكلية يرادف مفهوم النسق المستعمل في الدراسات العلمية والإنسانية. والبحث البنيوي، كما يرى "ساخاروفا"، لا يتجه نحو الموضوع كما هو، وإنما نحو نسق الدلالات؛ وهو عندما يدرس موضوعاً ما يدرسه بوصفه نسقاً من العلاقات والترابطات التي تعكسه[7].

والكلية البنيوية تفترض النظام، لأنّ البحث البنيوي يستهدف كشف البنية، والبنية، كما يذهب "إبراهيم زكريا"، ليست مجرد تعبير عن الكل، وإنما، أيضاً، تعبير عن ضرورة النظر إلى الموضوع باعتباره " نظاماً" أو "نسقاً" يسمح بالتواصل معه وإدراكه[8].

2- أسبقية العلاقة على العنصر:

ترى البنيوية أنّ العناصر لا تكتسب قيمتها من مادتها باعتبارها عناصر منعزلة، فقيمة العنصر تحدده العلاقة مع العناصر المجاورة. وهذا المبدأ يعد أحد أهم التحولات في التفكير الذي قاد إلى ولادة البنيوية باعتبارها نظرة إلى العالم وأشيائه؛ انطلاقاً من فكرة "العلاقات والترابطات". فالبنيوية هي أحد نتائج تطور التحليل الوظيفي، إذ أصبحت فكرة "العلاقات" بين العناصر لا تشكِّل الرؤية الموضوعية للأشياء وحسب؛ بل تشكل قيمة المنظومة بأكملها كما يذهب "ساخروفا"[9].

والنموذج البنيوي نموذج صوري؛ يعمل على تمثيل الترابط المنطقي المجرد، فالبنيوية مشغولة، على الدوام، بعلاقات البنية المعطاة، ولا تهجس، كما يرى "ياكبسون"، بكشف المضمون الذي يقف خلفها، ومن هنا تبرز صورية البنيوية في أعرض مساراتها[10]. وخلاصة الحديث حول هذا المبدأ يتضح في أنّ البنيوية تنظر إلى العناصر في إطار علاقاتها، فطريقة "أوجود أي عنصر تعتمد على بنية المجموع، وعلى القوانين التي تحكمه" [11].

3- مبدأ المحايثة:

هو أحد المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها البنيوية؛ وهو مبدأ يعمل على إبعاد المؤثرات الخارجية، سواء أكانت تاريخية أم اجتماعية أم سياسية...إلخ. فالبنيوية تسعى إلى كشف لعبة القانون الداخلي للظاهرة المدروسة، حيث تنظر إلى الظاهرة باعتبارها عملاً مكتفٍ بذاته، وقابلاً للتفسير من داخله، فلا يقف البنيوي عند البيئة الخارجية للموضوع، إذ تكتفي البنيوية بالترابط المنطقي المجرد، فالبنية، كما يراها

---

4 البنيوية، جان بياجية، ترجمة عارف منيمنة وبشرى أوبرى، ط4 دار عويدات، بيروت– لبنان، 1985م ص7.

5 المرجع السابق، ص9.

6الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، رومان ياكبسون، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، ط1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، 2002م، ص 13.

7 من فلسفة الوجود إلى البنيوية، داسات نقدية للاتجاهات الرئيسية، ت.أ.ساخاروفا، ترجمة د.أحمد برقاوي،ط1.دار المسيرة، لبنان،1984م، ص 168 .

8 مشكلات فلسفية مشكلة البنية (أو أضواء على البنيوية)، زكريا إبراهيم (دكتور)، ط مكتبة مصر– القاهرة، 1990م، سلسلة مشكلات فلسفية، كتاب رقم 8، ص8.

9 من فلسفة الوجود إلى البنيوية، ص166.

10 المرجع السابق، ص170.

11 الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ص25.

EDITORIAL

"جان بياجيه"، هي مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين المجموعة، حيث تبقى أو تفنى بلعبة التحويلات نفسها دون أن تتعدى حدودها، أو أن تستعين بعناصر خارجية[12]. مع أن البنيوية لم تكتف، في جميع مساراتها، بالداخل فقط، فقد تحوّلت من بعدها الشكلاني إلى بعد تكوينيٍ؛ يدرس الخارج انطلاقاً من الداخل، وهذا لا يعني الخروج عن مبادئي البنيوية، وإنما الخروج بها من بعدها الشكلي- الذي يكتفي بعلاقات البنية المعطاة، دون كشف المضمون الواقعي الضالع خلفها - إلى تحليل المضمون انطلاقاً من داخل العمل نفسه، وهذا ما تمثل في دراسات "لوسيان قولد مان"، وفي كتابات الدكتورة " يمنى العيد"[13] في النقد العربي، وهو اتجاه تغلب عليه الصبغة الماركسية.

4- مبدأ التزامن:

يُعدُّ هذا المبدأ أحد المبادئ المركزية في التفكير البنيوي، وهو مبدأ يتأسس على مفهوم عمل عناصر البنية بصورة فاعلة في لحظة محددة من الزمن؛ وهي مرحلة اكتمال البنية، حيث يمكن عزلها ودراسة علاقات عناصرها بغية الكشف عن الرؤية التي تتخفّى وراءها. " الذي يدرس الظاهرة في تطورها عبر الزمن؛ Diachronic"، في الثنائيات البنيوية، مبدأ التعاقب "Synchronicويقابل مبدأ التزامن" وهو مبدأ تاريخيّ تهمله البنيوية؛ لتكتفي بالتزامن. فالبنيوية كما يذهب "بياجيه" "... أخذت بطريقة المجموعات للنظام اللغوي المتزامن"[14].

5- مبدأ المعقولية:

ينص هذا المبدأ على أنّ البنية تكمن في اللاوعي، فهي عملية عقلية؛ ولكشف البنية لا بد من إبعاد المعيش والاكتفاء بالموضوع، وهنا تأتي الأبعاد الإجرائية منطلقة من مبدأ الثنائيات، مثل: فوق\ تحت، يمين\ يسار، سماء\ أرض، ذكر\ أنثى، غني\ فقير، فارغ\ ممتلئ...إلخ.

تلك هي أهم المبادئ التي تتأسس عليها الممارسة البنيوية، حيث تطلق كلمة بنيوية على أي دراسة تنطلق، في تحليلها للموضوعات، من هذه المبادئ، سواء أكانت دراسة لنصوص لغوية، أم مجتمعات، أم ظواهر طبيعية. فالبنيوية، بوصفها منهجاً، تقوم على مفهوم البنية باعتبارها نسقاً يقوم على الكلية والتحولات والضبط الذاتي[15]. والكلية والعلاقة يفترضان التزامن والمحايثة ضرورة.

عبد القاهر الجرجاني والفكر البنيوي

أرجع معظم المؤرخين الكشف البنيوي الكبير إلى مبادئ اللغوي السويسري "فردينان دو سوسور". يقول "أديث كريدويل": "... لما كان "كلود ليفي شتراوس" هو أول من كيّف لغويات "دي سوسور" ليطبقها في العلوم الاجتماعية- فقد اتخذت من أفكاره أساساً لتقويم الأشكال الأخرى للبنيوية" [16]. فالمبادئ التي فجرها سوسور هي مبادئ ارتبطت باللغة من حيث تفسيرها، مثل: الدال والمدلول، الإشارة، العلاقة، الاعتباطية، النظام، النسق، اللغة والكلام ...إلخ.

هذه المفاهيم الأساسية في البنيوية لم يكن "سوسور"، ومن جاء بعده، أول من قال بها نظرياً وتطبيقياً، فقد كان "عبد القاهر الجرجاني" المتوفى471هـ) أوّل من خطّ هذه الأسس صراحة، فقد ذهب إلى تأسيس نظرية متماسكة تنطلق من ذات الأسس والمفاهيم البنيوية؛ فمبادئ "عبد القاهر" تشكل الإرهاصات الأولى للمنهج البنيوي، فحديثه عن أهمية العلاقات والنظام كان حديثاً

12 البنيوية، جان بياجيه، ص8.

13 أنظر كتابها : في معرفة النص

14 البنيوية، جان ياجيه، ص7.

15 البنيوية، جان بياجيه، ص8.

16 عصر البنيوية، أديث كريدويل، ترجمة جابر عصفور،ط1. دار سعاد الصباح– الكويت، 1993م ، ص8.

EDITORIAL

صريحاً وعميقاً، وحديثه عن الدال والمدلول لا يحتاج إلى عناء وجهد تأويلي ليتأكد سبقه لـ"سوسور"، وأنّ "سوسور" لم يزد على ذلك إلا تنظيم المادة وتوسيع أبوابها.

استطاع "عبد القاهر الجرجاني" أن يخط نظرية متكاملة؛ لم تتحطم أسسها منذ القرن الحادي عشر الميلادي وإلى اليوم، وهي نظرية اتخذت من مفهوم الكلية والنسق والنظام، والعلاقات، والدال والمدلول، والاعتباطية- المبادئ الأساسية في التحليل. كما أنّ المصطلحات التي استعملها، إجرائياً، لم تبتعد عن ما هو مستعمل في الدرس البنيوي الحديث، ومع ذلك لم تشر كتب البنيوية عند الغربيين إلى "عبد القاهر الجرجاني" مطلقاً، فاعتبرت "سوسور" هو الأب الروحي للمنهج البنيوي، على الرغم من أن "سوسور" استند، في تأسيس رؤيته، إلى دراسات "فقه اللغة المقارن" التي أجريت على اللغات الشرقية، لاسيما دراسات "وليم جونز" في السنسكريتية واللغات الهندية. فإهمال الإشارة إلي" عبد القاهر الجرجاني" من قبل البنيوين؛ ولا سيما اللغويين منهم، يعد، في رأينا، أحد المصادرات الكبرى التي حدثت في تاريخ المعرفة.

لم يستعمل الجرجاني مصطلح (بنيوية)؛ فهذا المصطلح شاع في النقد العربي نتيجة ترجمة المصطلح الإنجليزي(Structuralism). أما "عبد القاهر" فقد استعمل مصطلح (النظم). والنظم، عند "الجرجاني"، يشكل نظرية مكتملة الأسس؛ فهي تمتلك مصطلحاتها ومفاهيمها، وتمتاز بالقدرة على التعميم، وتصلح لدراسة جميع النصوص في مختلف لغاتها. ولتوضيح هذا الكشف البنيوي(النظم) المتقدم في التاريخ- سنقف عند هذه النظرية في النقاط التالية:

مفهوم النظم:

يذهب "الجرجاني" إلى أنّ النظم هو طريقة في تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها يحدث بسبب من بعض؛ فالنظم هو عملية محدودة المعطيات، إلا أنّها قابلة للتطبيق على نطاق واسع، فالعناصر الأساسية التي تشكل الجملة أو العبارة أو النص هي عناصر محدودة، فعل، واسم، وحرف، يقول "الجرجاني" في ذلك: " معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها يحدث بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم(س) وفعل (ف) وحرف(ح)، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعليق اسم باسم(م س)*، وتعليق اسم بفعل(م ف)، وتعليق حرف بهما(م ح) "[17]. فمن هذه المعطيات المحدودة نستطيع أنْ نولّد نصوصا وجملا لا نهائية؛ فهذه العناصر لها خاصية توليدية، وذلك من خلال التعليق والإسناد، ونحن لا نحتاج، في ذلك، إلى غير توظيف هذه القاعدة البسيطة(م س، م ف، م ح). وهي ذات القاعدة التي خلص إليها "تشومسكي" في القرن العشرين تحت اسم (النحو الكلي) في قوله: "فيسمح النحو الكلي بعدد من المقولات التي تدخل تحتها الألفاظ المعجمية، وهي أساساً أربعة: الأفعال(ف) والأسماء(س) والصفات(ص) وحروف المعاني(ح)... ويعطي النحو الكلي لكل واحدة من هذه المقولات الأربع الأساسية إسقاطاً(projection) تحتل فيه هذه المقولة موضع الرأس: أي المركب الفعلي(م ف)، والمركب الإسمي(م س)، والمركب الوصفي(م ص)، والمركب الحرفي(م ح) "[18].

يستحق "عبد القاهر الجرجاني"، بهذا التخطيط، أن يكون صاحب مفهوم (النحو الكلي) قبل "تشومسكي" الذي لم يختلف مع "الجرجاني" إلا في جعله الصفة مركباً قائماً بذاته، بينما جعلها "الجرجاني" ضمن المركب الإسمي، وهذا الاختلاف ناجم عن اختلاف التصنيف في اللغات المختلفة؛ وهو تصنيف لا يُخِل بالمبدأ.

---

* نقصد ب (م س) مركب اسمي، و(م ف) مركب فعلي، و(م ح) مركب حرفي؛ سواء حرف واسم أو حرف وفعل.

17دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، ط5. مكتبة الخانجي– القاهرة، 2004م، ص4

18 اللغة ومشكلات المعرفة، نعوم تشومسكي(محاضرات ما ناجو)، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، ط1. دار توبقال، الدار البيضاء– المغرب، 1990م، ص102

EDITORIAL

وكما عرفنا، سابقاً، أنّ البنيوية تستند إلى منطق العلاقة، فهي ليست أول من كشف هذا البعد الذي غيّر مجرى الفكر البشري في القرن العشرين، فعبد القاهر الجرجاني يعدّ، في رأينا، أول من انتبه إلى هذه الخاصية، وجعل مدار بحوثه ينطلق منها، إلا أنّ التاريخ لم ينصفه حقاً، بإسناد هذا الكشف الكبير إليه. فالنظم يقبض على أهم خاصية من خواص المنهج البنيوي، ألا وهي (العلاقة)، والعناصر (الألفاظ)، في نظرية النظم، كما في البنيوية، لا تكتسب قيمة في ذاتها؛ وإنما العلاقة هي الأساس، يقول "الجرجاني": "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق الكلم بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذا بسبب من تلك"[19].

اعتبر "الجرجاني" العلاقة هي البعد الحاسم في تشكيل النص، فالكلمات تكتسب قيمتها من خلال علاقتها بغيرها، يقول: " فقد اتضح، إذن، اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً، أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ" [20]. توضّح هذه المقولة أنّ "الجرجاني" سبق "سوسور" إلى أهمية العلاقة؛ فسوسور يعيد كلام الجرجاني بلغة تتنفس نكهة العصر الحديث، إلا أنها لا تعدو كونها تكراراً لها، يقول "سوسور": "وأبرز ما في ترتيب اللغة الترابط السنتاكمي: إذ تكاد جميع الوحدات اللغوية تعتمد على ما يحيط بها في السلسلة المنطوقة، أو تعتمد على الأجزاء التالية لها" [21].

فالعناصر(الألفاظ)، في مذهب "الجرجاني"، لا تتفاضل من حيث القيمة الذاتية، وإنما التركيب هو الذي يحدِّد قيمتها: "وجملة الأمر أنه كما لا تكون الفضة والذهب خاتماً أو سواراً أو غيرهما من أصناف الحلى بأنفسها، ولكن بما يحدث من الصورة، كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً وشعراً من غير أن يحدث فيها النظم الذي حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه" [22].

والباحث لا يجد اختلافاً بين هذا الرأي وما أتى به "سوسور" في قوله: "وسواء أخذنا المدلول أو الدال فإن اللغة لا تملك أفكاراً ولا أصواتا لها وجود قبل النظام، وكل ما تملكه هو الفروق الفكرية والصوتية التي نبعت من النظام. فالفكرة أو المادة الصوتية التي تحتوي عليها الإشارة أقل أهمية من الإشارات الأخرى المحيطة بهذه الإشارة" [23].

يُعطي "عبد القاهر" تصوراً واضحاً حول دور العلاقة ؛ فموقع الكلمة في الترتيب هو الذي يحدد قيمتها، ويدلل على ذلك بأنّ الكلمة نفسها تحسن في بعض المواضع دون بعض، ويأخذ كلمة(الأخدع) ليدلل على تغيّر قيمتها بتغير موقعها: "وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة(الطويل) [24]:

تَلَفَّتُ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي وُجِعْتُ مِنْ الْإِصْغَاْءِ لَيْتاً وَأَخْدُعِا

وبيت "البحتري"(الطويل) [25]:

---

19 دلائل الإعجاز، ص55.

20 المرجع السابق ، ص44.

21علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجة يوئيل عزيز، ط دار آفاق عربية، بغداد، 1985م، ص147.

22 دلائل الإعجاز، ص 147.

23علم اللغة العام، ص 139.

24شرح ديوان الحماسة، المرزوقي(أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، ت 421هـ)، تحقيق غريد الشيخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2003م، ص853.

25ديوان البحتري(أبوعبادة الوليد بن عبيد بن يحي، 200هـ– 284هـ)، تحقيق، دار الكتب العلمية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1987م، ج1، ص 90.

EDITORIAL

وَإِنِّي وَإِنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفُ الْغِنَى وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ الْمَطَامِعِ أَخْدُعِي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن. ثم تأملها وبيت "أبي تمام"(المنسرح) [26]:

يَادَهْرُ قَوِّمْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرُقَكْ" [27]

هذا- والعناصر المفردة لا تفيد، في رأي الجرجاني، إلا إذا دخلت في ضرب خاص من التركيب، ورُتبت في نظام خاص من التأليف حتى تصير(كلاً) لا يتجزأ، فواضع الكلام، في رأيه، مثل الصائغ الذي يصهر قطع الذهب ليعيد تشكيلها في قطعة واحدة تشكل كلاً ليس هو مجموع العناصر، وإنما هو شكل جديد ينتج عن اتحاد هذه العناصر، يقول في ذلك: "واعلم أنّ مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير (قطعة واحدة). وذلك أنك إذا قلت: (ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له) فإنك تحصل من مجموع هذا الكلم كلها على مفهوم، هو معنًى واحد لا عدة معانٍ، كما يتوهمه الناس" [28].

فالكلية والنظام، في نظرية الجرجاني، كما في البنيوية، هما الأساس الذي يشكل العمل. والعناصر المكونة له يُعاد صوغها في إطار النظام، وهو نظام لا يمكن تقسيمه دون إفساده، فالكلم حين يأخذ شكل النظام يكون كالحلقة المفرغة لا تقبل التقسيم؛ وإذا حاولت تقسيمه ستدمر البنية، كليّة، وتبطل وظيفتها بتحطيم شكلها، ففي تعليقه على بيت "بشار"(بحر الطويل) [29]:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوْسِهِمْ* وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاْوَىْ كَوَاْكِبُهْ

يقول: "... فبيت بشار كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التقسيم، ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصائغ حين يأخذ كِسراً من الذهب فيذيبها، ثم يصبها في قالب، ويخرجها لك سواراً أو خلخالاً. وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار، وذلك أنه لم يرد أن يشبه النقع بالليل على حدة، والأسياف بالكواكب على حدة، ولكنَّه أراد أن يشبه النقع والأسياف تجول فيه بالليل في حال ما تنكدر الكواكب وتتهاوى فيه. فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد)[30].

ومن جهة أخرى فالنظم هو المعرفة بطرائق تركيب العناصر (الألفاظ) مع بعضها، وهو ما يسميه "الجرجاني"(علم النحو)، وهو غير (النحو) الذي يبحث في معرفة حركة أواخر الكلمات؛ وما يعتريها من تغيّرات بسبب تغير المواقع الإعرابيه، وإنَّما هو مصطلح يقترب من علم التراكيب من جهة، وعلم الدلالة من جهة أخرى، يقول الجرجاني:"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيءٍ منها"[31]، فمدار النظم، عند "الجرجاني" يجري على مدار معاني النحو، وعلى الوجوه

26شرح ديوان أبي تمام(حبيب بن أوس الطائي)، شرح إيليا الحاوي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، 1981م، ص، 390.

27 دلائل الإعجاز، ص 47 .

28 المرجع السابق، ص413

29 ديوان بشار(بشار بن برد بن بهمن 96هـ– 166هـ)، تحقيق. محمد الطاهر بن عاشور، ط1، وزارة الثقافة الجزائرية(مطبوعات الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007م) – الجزائر، 2007م، ص، 335

* وردت في كتاب الأغاني، ومعظم كتب العربية، رؤوسنا، إلا أنّ الشاعر يصف الأعداء؛ لأنّ سيوفهم كانت فوق رؤوس الأعداء، وهذا رأي محقق هذه النسخة، وأوافقه هذا الاتجاه.

30 دلائل الإعجاز، ص414

31 المرجع السابق، ص 81.

EDITORIAL

والفروق التي من شأنها أن تحدث فيه، وأن القيمة لا تأتي من الفروق التي تحدثها العناصر، بل بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، وبحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها من بعض [32].

الدال والمدلول

اعتبر كثير من الباحثين أنّ الأفكار الأساسية في المنهج البنيوي تتكون من ثنائية الدال والمدلول؛ فالدال هو ما يشير إلى شيئ. وفي اللغة: الدال هو المكون الصوتي. والمدلول هو المكون الذهني أو الفكري. وباتحاد الدال والمدلول تنهض الإشارة أو العلامة اللغوية أو الرمز. والفصل بين هذه المصطلحات الثلاثة لا يتم إلا على مستوى البعد الإجرائي الذي تقتضيه الدراسة اللغوية، وأنّ اعتماد هذه العناصر الثلاثة، كما يذهب "جون سترونك"، تعدّ "دليلاً كافياً لانتماء كاتب ما إلى البنيوية"[33].

ومن أهم المقولات المرتبطة بالدال والمدلول مقولة (الاعتباطية) التي نسبت إلى "سوسور"؛ وأكدها من بعده جميع البنيويين، فـ"سوسور" يقول عن ذلك: "إنّ كل شيئ يرتبط باللغة نظاماً ينبغي، على ما اعتقد، أن يدرس من وجهة نظر تحديد الاعتباطية: وقد أهمل اللغويون وجهة النظر هذه مدة طويلة من الزمن. إنّ هذا خير وسيلة لدراسة اللغة على أنها نظام، بل إنّ النظام اللغوي بأجمعه يستند إلى هذا المبدأ غير المنطقي، وهو اعتباطية الإشارة" [34] . ويقول في ذات السياق: (إنّ هذه الآراء توضح بصورة أفضل ماقيل سابقاً عن اعتباطية الإشارة، فالمسألة لا تقتصر على أن الميدانين اللذين تربط بينهما الحقيقة اللغوية لا شكل لهما، بل اختيار شريحة صوتية معينة للتعبير عن فكرة معينة عملية اعتباطية محضة... بيد أنّ القيمة تبقى دائماً نسبية. ولذلك تكون العلاقة بين الصوت والفكرة اعتباطية بصورة جذرية" [35].

هذا المفهوم المهم في اللسانيات البنيوية على وجه التحديد، والذي نسب إلى "سوسور" يعتبر "عبد القاهر الجرجاني "صاحبه الأول. فالجرجاني أول من ذهب، صراحة، إلى أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية، وذلك في قوله: "ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل، الفرق بين قولنا: (حروف منظومة) و(كلم منظومة). وذلك أنّ نظم الحروف ليس إلا تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن شيء معين، ولا الناظم لها بمقتفٍ، في ذلك، رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى، في نظمه لها، ما تحراه، فلو أنّ واضع اللغة قال(رَبَضَ) مكان(ضَرَبَ) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد" [36].

فتعاقب الأصوات، كما يذهب "سوسور"، لا يعبّر عن شيء إذا لم يقرن بفكرة محددة. وهذا القول قد سبقه إليه الجرجاني قبل مدة من الزمن؛ وذلك في قوله: "وأبوا أن ينظروا في الأوصاف التي اتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ، مثل قولهم (لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه)، إلى سائر ما ذكرناه من قبل، فعلموا أنهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبوه من الفضيلة، وهم يعنون نطق اللسان وأجراس الحروف، ولكن جعلوا كالمواضعة بينهم أن يقولوا (اللفظ) وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى، والخاصة التي حدثت فيه...إلخ" [37].

فالألفاظ (الدوال) تكتسب قيمتها من المعاني التي تعبر عنها، وهنا نجد "الجرجاني" يفرّق، بصورة دقيقة وعلمية، بين الدال والمدلول؛ وهو تفريق لم تتجاوزه لسانيات العصر الحديث كثيراً، فالألفاظ عبارة عن دوال فارغة؛ يملؤها المعنى فتكوّن صورة

32 المرجع السابق، ص87.

33 البنيوية وما بعدها(من ليفي شتراوس إلى دريدا، ص 11.

34 علم اللغة العام152.

35 المرجع السابق، ص 132.

36 دلائل الإعجاز، ص 49.

37 دلائل الإعجاز، ص 482

خاصة أطلق عليها المحدثون (الإشارة) أو العلامة، وهذا التفريق نجده واضحاً عند الجرجاني، وذلك في تفرّيقه ما بين التصورات التي تحدثها إيقاعات الأشياء والأفكار الخارجية في النفس (تصور النفس) والألفاظ التي هي دوال فارغة تتبع تلك التصورات، فعند "سوسور" تتأسس الإشارة من ثنائية (الفكرة\ الصورة الصوتية)، وعند الجرجاني تتكون من ثناية(التصور\ اللفظ)، يقول الجرجاني: "وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها؟ أوليست هي سمات لها، وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني، وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت(=تُعْرَف) الأشياء، وقبل أن كانت(=تكون). وما أدري ما أقول في شيء يجبر الذاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال ورديء الأقوال"[38].

لم تذهب أفكار"سوسور"، عن الدال والمدلول، أبعد مما ذهب إليه الجرجاني؛ فسوسور يردد كلام الجرجاني السابق دون زيادة؛ وذلك في قوله "لكن لنفترض أنّ الصوت شيء بسيط. فهل هو اللسان؟ الجواب لا، فهو وسيلة الفكر ليس إلا، ليس له وجود في حدِّ ذاته أو وحده، بعيداً عن الفكر...إلخ" [39] .

والكلمات عند "سوسور" لا تمثل أفكاراً حول وجودها سلفاً: "لو كانت الكلمات تمَّثل أفكاراً حول وجودها سلفاً، لكانت جميعاً تعبر عن معان واحدة في اللغات المختلفة. ولكن هذا غير صحيح" [40] . وأنظر ما قاله الجرجاني عن هذا الأمر وقارن، هل ستجد فرقاً في المفهوم؟ يقول الجرجاني: "... هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟... فكيف يتصور أن تسبق المعاني، وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء، وقبل أن كانت...إلخ" [41] .

اللغة والفكر

تعد قضية اللغة والفكر من أكثر القضايا التي شغلت الفكر الإنساني في العصر الحديث، وقد عالجت اللسانيات الحديثة هذا الجانب من زاوية شكلية، إذ اعتبر كثير من الباحثين أنّ اللغة هي التي تولد الفكر، وأنه لا يوجد تفكير خارج دائرة اللغة، وانطلقت المفاهيم الأولية حول هذه القضية من العلاقة القائمة بين الدال والمدلول، فاعتبروا المدلول هو الجانب الذهني من اللغة، وهو جانب غير مادي، واعتبروا أنّ الدال هو الجانب المادي من اللغة، كذلك ذهبوا إلى أنه لا يمكن الفصل بين الدال والمدلول:"... أما المدلول فهو الجانب الذهني من اللغة، وهو جانب كثيراً ما نعتبره غير مادي، مع أنّ من المؤكد أنّ المدلول في الدماغ هو أيضاً حادث عصبي. والدوال والمدلولات لايمكن فصلها بهذه الطريقة إلا من قبل المنظر اللغوي... فالصوت الذي لا يعني شيئاً حقاً ليس إلا أنّه لا يدلُّ. إذ لا يمكن أن نحصل عل دالٍ دون مدلول. وكذلك لا يمكن القول إنّ هناك مفهوماً من المفاهيم لم يجد ما يُعبّر عنه على شكل لغة، أي، لايمكن أن نحصل على مدلول دون دال" [42] .

هذا الحديث الذي اعتبره الانثروبولوجيون واللسانيون البنيويون أساس التفكير البنيوي، نجده مكتمل المعالم والأبعاد عند عبد "القاهر الجرجاني". فالجرجاني يستعمل اللفظ في مقابل الدال والمعنى في مقابل المدلول، وأحياناً يستعمل اللفظ للدلالة على العلامة أو الإشارة اللغوية، ولكنه يفرّق بينهما، سياقياً، بصورة تنم عن وعي عميق بأبعاد القضية. فالعلاقة بين الدال والمدلول،

---

38 المرجع السابق، ص417.

39 علم اللغة العام، ص26.

40 المرجع السابق، ص 136.

41 دلائل الأعجاز، ص 417.

42 البنيوية من ليفي شتراوس إلى دريدا، ص11

EDITORIAL

في نظرية الجرجاني، علاقة قوية، ولا يمكن الفصل بينهما؛ فمعرفة الألفاظ هي معرفة بالمعاني وعكس ذلك صواب، والدوال تتبع المدلولات في عملية طردية، فالبعد الفكري هو الأساس الذي تأتي الألفاظ لتسوّره وتفصح عنه، وترتيب المعاني في النفس يُوجد الألفاظ التي تتلبَّسه ضرورة، والعلم بمواقع المعاني، في رأي الجرجاني، هو علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها، يقول "الجرجاني" : "... أنه لا يتصور أنْ تعرف للفظ موضعاً من غير أنْ تعرف معناه، ولا أنْ تتوخَّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنّك تتوخَّى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها أثارها، وأنَّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أنْ تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم المعاني، وتابعة لها ولاحقة بها، وأنْ العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[43].

هذا- ويعد الجرجاني سابقاً " تشومسكي" في الحديث عن علاقة اللغة بالفكر، فقضية الفكر في اللغة ترتبط بتصنيف أساسي؛ يقع في التركيب وليس في الألفاظ، والألفاظ في ترتيبها على نسق مخصوص تشكل البنية السطحية، وهي تخضع في احتمالاتها التركيبية إلى بنية عميقة واحدة، هي بنية عقلية، يقول "الجرجاني": "وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أنّ المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم، أعني الاختصاص في الترتيب، يقع على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل"[44]. فـ"تشومسكي"، في هذا البعد، لم يذهب بعيداً عن ما قال به "الجرجاني"، فهو يرى أنّ تركيب الجمل، وتمثيلها يكون في العقل الذي يهندس بناءها في عملية صامتة، يقول "تشومسكي": " ونرى هنا دليلاً مباشراً أنَّ (الأثر) موجود بالفعل في التمثيل العقلي للجملة، ولو أنَّه ليس منطوقاً، فهو يُرى بالعقل، حيث يحوسب (COMPUTES) العقل بنية الجملة، ولا بدَّ أنْ يتماشى مع مبدأ ربط العائدات، لكنه لا ينطق؛ بسبب أنَّه لا يحوي أيَّ خصائص صوتية"[45]. فالمبادئ الحوسبية، عند "تشومسكي"، تقوم بعدد من العمليات؛ كي تنتج عنها الجملة الحقيقية، أما عند "الجرجاني" فالجملة السطحية تخضع، في تشكُّلها، إلى عملية عقلية خالصة؛ فالنظم ليس هو تشكُّل الألفاظ وتوالي نطقها وحسب، وإنّما هو تناسق الدلالات، وانسجام المعاني على الوجه الذي يقتضيه العقل: "والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أنْ ليس الغرض بنظم الكلم، أنْ توالت ألفاظها في النطق، بل أنْ تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل" [46].

ومن جهة أخرى نجد أنّ "الجرجاني" قد قبض على حقيقة التأليف والتفسير وما يتطلبانه، وقد انطلق في ذلك من نظريته (النظم)، فالتأليف يقوم على بناء النظام الذي يخضع إلى عمليات التوليف بين المفردات، واستعمال النحو المنطقي الذي يُطابق فيه بين البنية السطحية(الجمل) والبنية العميقة (الفكر)، وفساد التأليف ينجم عن الإخلال بهذه المعادلة، أما التفسير فيعتمد، أساساً، على المعطيات التي يقدمها النص، أي، أنّ النص لا بدّ أنْ يُشكِّل نظاماً يسمح بعملية القراءة المباشرة أو المحتملة؛ فإذا بطل النظام فإنّ عملية التفسير تُصبح عمليةً مستحيلةً؛ وذلك لأنّ صناديق مفاتيح النظام، كما يسميها "تشومسكي"، لم تُثبّتْ جيداً، أي، أنّ

43 دلائل الإعجاز، ص 54.

44 أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد محمد شاكر، ط1. مطبعة المدني– القاهرة، 1991م، ص 5.

45 اللغة ومشكلات المعرفة، ص118

46 دلائل الإعجاز، ص50

EDITORIAL

المبدع لم يوائم بين البنية السطحية والبنية العميقة، وذلك لإخلاله بعملية التحويلات، يقول الجرجاني: " فخذ إليك الآن بيت الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسف اللفظ (بحر الطويل) [47]:

وَمَا مِثْلُهُ فِيْ النَّاسِ إِلّاْ مُمَلَّكَاً أَبُوْ أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوْهُ يُقَارِبُهْ

فأنظر أيُتَصَوَّر أنْ يكون ذمّك للفظة من حيث أنّك أنكرت شيئاً من حروفه، أو صادفت وحشيّاً غريباً، أو سوقيّاً ضعيفاً؟ أم ليس إلا أنّه لم يُرَتِّب الألفاظ في الذكر (البنية السطحية) على موجب ترتيب المعاني في الفكر(البنية العميقة)، فكدّ وكدّر، ومنع السامع أنْ يفهم الغرض، إلا بأنْ يقدِّم ويؤخِّر(تحويل)، ثم أسرف في إبطال النظام(عدم وضع المفاتيح في وضع معين) وإبعاد المرام، وصار كمن رمي بأجزاء تتألف منها صورة ولكن بعد أنْ يراجع فيها باباً من الهندسة، لفرط ماعادى بين أشكالها، وشدة ما خالف بين أوضاعها" [48].

فالجرجاني يذهب، في مقولته السابقة، إلى أنّ المبدع عليه أنْ يَتحرَّى في نظمه أعراف اللغة التي تسمح بالتشكيلات الممكنة أو المحتملة، وهي ما يسميها بمراعاة معاني النحو، وهذا القول في تفسير لغة الإبداع ناقشه "تشومسكي" بطريقة لم تخرج، في مضمونها، عن ما قال به "الجرجاني"؛ فتشومسكي يذهب، كما الجرجاني، إلى أنْ عملية التفسير تستند إلى مبدأ النظام، وذلك باستعمال مبادئ النحو في التأليف، والربط بين عناصر العمل، يقول "تشومسكي": "ولقد تحدثت في هذه المحاضرات عن جانب الإدراك، لكنني لم أتناول بعد المظهر الإبداعي لاستعمال اللغة، ، وهو مظهر عادي ومعروف، لكنه ظاهرة فريدة، فيجب أنْ يفهم إنسان ما تعبيراً لغوياً معيناً أنْ يَتَعَرَّفَ عقله\ دماغه الشكل الصوتي لهذا التعبير، والكلمات التي يتكون منها، وأنْ يستعمل من ثمّ مبادئ النحو الكلي وقيم المتغيرات لكي يسقط (PROJECT) له تمثيلاً بنيوياً يحدد الكيفية التي تُرْبَطُ بها أجزاؤه" [49].

تخضع عملية التحليل عند " تشومسكي"، كما " عند الجرجاني"، لقوانين النحو، فتشومسكي يستعمل مصطلح (النحو الكلي) وعبد القاهر يستعمل(علم النحو) و(معاني النحو)، وفساد النظام عند "تشومسكي" يأتي من(عدم تثبيت المفاتيح بصورة صحيحة)، وعند "الجرجاني" يأتي من(الإخلال بعملية الإسناد)، يقول " تشومسكي" مؤكداً كلام الجرجاني السابق ومضيفاً مصطلح الملكة اللغوية- : "ويمكن أنْ ننظر إلى الملكة اللغوية على أنّها شبكة متداخلة معقّدة، من نوع ما هو موصول بصندوق للمفاتيح(Switches) يحوي عدداً من المفاتيح التي يمكن أنْ تثبّت في وضع معين، فإذا لم توضع المفاتيح في وضع معين سيظل النظام معطلاً... فالشبكة الثابتة هي نظام مبادئ النحو الكلي، أما المفاتيح فهي المتغيرات التي ستثبت بالتجربة" [50].

وفي قضية اللغة والفكر نجد أنّ " الجرجاني" استطاع، في وقت مبكر، أنْ يفرق بين الكفاية اللغوية والقدرة أو الأداء، فالعملية الفكرية، في رأيه، لا تقوم على ما يمتلكه الفرد من مخزون ومعارف تتيح له التحدث أو التأليف، بل بما يثبته فعلاً، وهذا البعد أحد أهم المكتشفات التي نسبت إلى " تشومسكي" في صياغة نظريته اللسانية، فأحد أهم ثنائيات تشومسكي (الكفاية اللغوية والقدرة)، وهذا ما نجده عند "عبد القاهر الجرجاني" صريحاً دون تأويل؛ حيث فرّق بين ما يدعيه الفرد من فكر وما يثبته في

47 لم أعثر عليه في ديوان الفرزدق، وقد ورد في معظم كتب الأدب القديم، الكامل في اللغة والأدب، المبرّد(أبو العباس محمد بن يزيد، ت 285هـ)، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ج1، ص، 28.

48 أسرار البلاغة، ص 21.

49 اللغة ومشكلات المعرفة، ص 188

50 اللغة ومشكلات المعرفة، نعوم تشومسكي(محاضرات ما ناجو)، ص 95.

السلسلة الكلامية، يقول الجرجاني: "اعلم أنْ سبيلك أولاً أنْ تعلم أنْ ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعى لها- في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إيَّاها" [51].

النظم والأسلوبية

تلتقي الأسلوبية مع البنيوية في كونهما يسعيان إلى دراسة الأسلوب، وهما يستعملان أدوات متقاربة لغايات متباينة، فالأسلوبية تسعى إلى كشف الخصائص المميزة لتعبير ما، بينما البنيوية تسعى إلى اكتشاف نمط العلاقات المتحكمة في ظاهرة ما؛ لاكتشاف الرؤية المتحكمة في الظاهرة المدروسة. وهذا التقارب قاد إلى نشوء اتجاه أسلوبي عرف بـــ(الأسلوبية البنيوية)، وهو منهج، كما يذهب "بيير جيرو" يمزج ما بين البعد الكشفي والنقدي، يقول بيير: "...هكذا حين نعارض بين اللغة والخطاب نميز نوعا من الأسلوبية في اللغة حسب بالي، ونقداً للأسلوب في النص حسب البنيوية. وثمة، في كل حال، أسلوبية بنيوية أو وصفية تصف البنية الاستبدالية للنسق، أو البنية التركيبية للنص الذي ولده النسق وهناك أسلوبية تكوينية تحدد أصل ازدواجية البنية، وخاصة أصل القانون. وأخيرا، الأسلوبية الوظيفية، وهي تحدد مصيرها ومصير الرسالة" [52].

هذا المنحى البنيوي الأسلوبي لم يبتعد عمّا اختطه عبد القاهر الجرجاني في نظريته (النظم)؛ وهي نظرية تأسست على ذات الأفكار التي تأسست عليها البنيوية لاحقاً: النظام، النسق، العلاقة، الاعتباطية ...إلخ. فالجرجاني وضع نظرية تجمع بين كشف التباينات الأسلوبية وبيان الرؤية التي تتحكم فيها، واستعمل في هذا الكشف طرائق الأسلوبية البنيوية، باعتبار أنّه انطلق من مفاهيم الداخل لمعرفة الفوارق بين طرائق تشكيل اللغة الفردية(الكلام).

ذهب "الجرجاني" إلى أنّ التفاوت بين الأقوال هو تفاوت في طريقة التأليف التي يتوخاها المبدع، وهي توظيف معاني النحو؛ وذلك بنسج الكلم، وصياغة الأقوال بطريقة تمنحها التفرد، وهذه العملية، في رأيه ، أشبه بعملية الأصباغ المستعملة في بناء الصورة والنقوش في الثياب: "وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصورة والنقوش، فكما أنّك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخيّر والتدبّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها، وكيفية مزجه لها وترتيبه إيّاها، إلى ما لم يتهد إليه صاحبه، فجاء نقشه منْ أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي عملت، أنّها محصول النظم" [53] .

الأسلوب عملية تخضع إلى القصدية، وذلك كون المبدع، في رأي "الجرجاني"، يجهد في التخيّر ونسج الكلام، وهي قَصْدِيَّة ذِاتُ بُعْدٍ سايكولوجي؛ باعتبار أنّ المبدع يُخضِعُ هذه العملية إلى الملائمة بين الجمل التي يصيغها وقبول النفس لهذه الجمل، يقول الجرجاني: "واعلم أنّ مما هو أصل في أنْ يَدَقّ النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أنْ تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأنْ تحتاج في الجملة إلى أنْ تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأنْ يكون

51 دلائل الإعجاز، ص71.

52 الأسلوبية، بير جيرو، ترجمة منذر عياشي، ط2، مركز الإنماء الحضاري، حلب– دمشق، 1994م، ص، 147 .

53 دلائل الإعجاز ،ص 88

EDITORIAL

حالك فيها حال الباني؛ يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك. وليس شأنه أنْ يجيء على هذا الوصف حدّ يحصر، وقانون يحيط به، فإنَّه يجيء على وجوه شتى، وأنحاء مختلفة"[54].

والأسلوب، من جهة أخرى، هو عملية فكرية تحدث من توخي المعاني النحوية لا الألفاظ المنطوقة، ولما كانت المعاني ذات طابع نفسي، فإنّ تصورات الناس تختلف من فرد إلى فرد، وحاصل هذه العملية هو صورة لا تشبه غيرها، ومن هذا الاتجاه تتباين الأساليب، فيصبح الأسلوب خاصية فردية "واعلم أنّ قولنا(الصورة) إنّما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلمّا رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبين إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذلك.. ثم وجدنا المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأنْ قلنا: (للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك)"[55] .

والأسلوب عملية انزياحية، تقوم على عملية إسناد الكلم بعضها إلى بعض، واستخدام طرائق التحويل في تكوين الجملة؛ وذلك بوضع الكلام من التقديم والتأخير حتى يصير القول عملاً خاصاً، يقول "الجرجاني": "وإن أردت أعجب من ذلك، فأنظر إلى قوله (بحر البسيط).

سَأَلْتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِيْنَ دَعَاْ أَنْصَاْرَهُ بِوُجُوْهٍ كَالدَّنَاْنَيْرِ

فإنّك ترى هذه الاستعارة ، على لطفها وغرابتها، إنّما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما تُوُخِّيَ منْ وضع الكلام من التقديم والتأخير، ونجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك وموازرته لها. وإنْ شككت فاعمد إلى الجارين والظرف، فأزل كلا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: (سَأَلْتْ شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره) ثم أنظر كيف يكون الحال؟"[56].

وتتضح الخاصية الأسلوبية، باعتبارها عملاً فرديّاً، في أنّ ناسج الكلام يتحرى في صنيعه المعاني وليس الألفاظ، ومن هنا يكون الأسلوب خاصيَّة فكريَّة، تحدد أبعادها الرؤية الذاتية وطريقة التعبير، حيث يتوخى صاحب الأسلوب(نسقاً وترتيباً محددين)؛ لا يتطابقان مع أنساق غيره وترتيباته، يقول "الجرجاني": "وتزداد تبيّناً لذلك بأنْ تنظر في القائل إذا أضفته إلى الشعر، فقلت: (امرؤ القيس قائل هذا الشعر) من أين جعلته قائلاً له؟ أمنْ حيث نطق بالكلم وسمعت ألفاظها من فيه، أم من حيث صنع في معانيها ما صنع وتوخى ما توخى؟ فإنْ زعمت أنَّك جعلته قائلاً منْ حيث أنَّه نطق بالكلم وسمعت ألفاظه منْ فيه على(النسق المخصوص)، فاجعل راوي الشعر قائلاً له. فإنْ قلت إنّ الراوي، وإنْ كان قد نطق بألفاظ الشعر على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر، فإنّه هو لم يبتدئ فيها النسق والترتيب، وإنّما ذلك شيء ابتدأه الشاعر، فلذلك جعلته القائل دون الراوي" [57] .

وخاصية الأسلوب هي خاصية فردية، تنتج من مكابدة الشاعر في دواخله لنحت الصور الخاصة والمعاني الفريدة، وهي تعتمد، كليةً، على الطريقة التي يتوخاها الشاعر، لا على معطيات البيئة المحيطة بالمبدع؛ فقد يشترك أكثر من مبدع في ذات المعطيات البيئية، إلا أنّ نتاجهم الإبداعي يختلف اختلافاً كبيراً، ويتفاوت تفاوتاً بيّناً، مما يعني أنّ الصيغة الفرديّة هي الأساس في تشكيل الإبداع، يقول "الجرجاني": "... وهذا بابٌ واسعٌ، فإنَّك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلمة بأعيانها، ثم ترى هذا قد

54 دلائل الإعجاز، ص 93.

55المرجع السابق، ص 508.

56،المرجع السابق ص 99.

57 دلائل الإعجاز ، ص363.

EDITORIAL

فرع السِّماك، وترى ذالك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أنْ يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما تحسن أبدا، أو لا تحسن أبداً" [58] .

فالفروقات الأسلوبية تخضع إلى الأداء وليست إلى المعرفة المحصلة عند المبدعين؛ فطريقة تنظيم الكلمات، وهي عملية فردية خالصة، هي التي تجعل هذه الفروقات التي نراها بين المبدعين. هذه الرؤية الثاقبة التي نسجها الجرجاني نجدها عند تشومسكي في حديثه عن الفرق بين المعرفة والاستعمال، وأنّ المزية الجمالية والتفوق يأتيان، في رأيه، من طريقة استعمال اللغة وليس من المعرفة المحصلة عند المبدع، يقول تشومسكي: "... غير أنّه لا يمكن قبول الرأي القائل بأنَّ المعرفة هي القدرة اللغوية، وهناك اعتبارات بسيطة تبيّن عدم صحته. لنتصور، مثلاً، أنّ هناك شخصين على مستوى واحد من المعرفة باللغة الأسبانية: أي، أنّ نطقيهما ومعرفتيهما بمعاني الكلمات، وفهميهما لتركيب الجملة، وغير ذلك متماثلة. ومع ذلك، فهما قد يختلفان اختلافاً كبيراً في استعمال اللغة. بل إنّ ذلك ما يحدث فعلاً، فقد يكون أحدهما شاعراً عظيماً، أما الآخر، فلا يستعمل إلا اللغة السوقية، ويعتمد في كلامه على استعمال العبارات المحفوظة الجاهزة... ولهذا السبب فمن الصعب أنْ نقنع بأنّ المعرفة هي القدرة" [59].

الخاتمة:

من خلال البحث يتضح لنا الآتي:

1- عمق الدراسات اللغوية العربية القديمة، وسبقها إلى فتوحات معرفية كبرى لم تُقدّر حق قدرها.
2- ساعد تطور الدراسات اللغوية والنقدية في العصر الحديث على اكتشاف كنوز التراث العربي.
3- إنّ "عبد القاهر الجرجاني" هو أول من خطّ أسس التفكير البنيوي؛ وذلك في نظريته (النظم)، حيث كانت مصطلحاته موحدة في دراساته، ومفاهيمه متسقة ودقيقة وعلمية.
4- سبق "عبد القاهر الجرجاني" "فرديناد دو سوسور" إلى مركزية العلاقة، والكلية، وثنائية الدال والمدلول واعتباطية العلاقة.
5- سبق "الجرجاني" " نعوم تشومسكي" إلى مفهوم النحو الكلي، والتوليد والتحويل، والكفاية والأداء الكلامي، والبنية السطحية والعميقة للجمل، وعلاقة اللغة بالفكر.
6- سبق الجرجاني الدراسات الأسلوبية الحديثة إلى بيان أنّ الأسلوب خاصية فردية في استعمال اللغة، وأنّ الفروقات الأسلوبية تخضع إلى الأداء وليست إلى الكفاية اللغوية.
7- قصر عبد القاهر الجرجاني دراساته التطبيقية على النظم والنثر، فإذا فتحها على العلوم الاجتماعية لكان علامة فارقة في تاريخ الدراسات اللغوية عموماً.
8- لم تنوه البنيوية، لدى الغربيين، إلى دور عبد القاهر الجرجاني في بلورة المفاهيم الأساسية للبنيوية، الأمر الذي اعتبرناه مصادرة معرفية ونستبعد جهل رواد البنيوية بدراسات الجرجاني.

58المرجع السابق ، ص48.

59اللغة ومشكلات المعرفة (محاضرات ما ناجو)، ص24.

EDITORIAL

9- مثّل عبد القاهر الجرجاني عقلية فريدة؛ استطاعت أنْ تنتج فكراً ووعياً شكلا إرهاصات لأعرض تيار أو منهج أو فلسفة في القرن العشرين، ألا وهو التيار البنيوي.

وفي الختام يوصَّي البحث بإعادة قراءة التراث العربي بعد التطور الذي حدث والمنهجيات التي صُممتْ؛ ولا سيما في مجال اللسانيات والنقد الأدبي والفلسفة. كما يوصَّي بتنسيق الجهود وتطوير الدراسات المقارنة والتسلح بالمناهج الحديثة مع الانتباه إلى الفرق بين تمثلها وتوظيفها.

EDITORIAL

المصادر والمراجع

1- أبو تمام(حبيب بن أوس الطائي)، **شرح ديوان أبي تمام**، شرح إيليا الحاوي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1981م.

2- أديث كريدويل، **عصر البنيوية**، ترجمة جابر عصفور، ط1. دار سعاد الصباح- الكويت، 1993م.

3- البحتري(أبوعبادة الوليد بن عبيد بن يحي، 200هـ- 284هـ)، **ديوان البحتري** ، تحقيق دار الكتب العلمية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1987م، ج1.

4- بشار بن برد بن بهمن (96هـ- 166هـ)، **ديوان بشار**، تحقيق. محمد الطاهر بن عاشور، ط1، وزارة الثقافة الجزائرية(مطبوعات الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007م) – الجزائر، 2007م.

5- بير جيرو، **الأسلوبية**، ترجمة منذر عياشي، ط2، مركز الإنماء الحضاري، حلب- دمشق، 1994

6- ت.أ.ساخاروفا، **من فلسفة الوجود إلى البنيوية(داسات نقدية للاتجاهات الرئيسية)**، ترجمة د.أحمد برقاوي، ط1.دار المسيرة، لبنان،1984م.

7- جان بياجية، **البنيوية**، ترجمة عارف منيمنة وبشرى أوبري، ط4 دار عويدات، بيروت- لبنان، 1985م

8- جون ستروك، **البنيوية وما بعدها(من ليفي شتراوس إلى دريدا)**، ترجمة د. محمد منصور، سلسلة عالم المعرفة، ط. المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، كتاب 206، 1996م.

9- رجاء جارودي، **البنيوية فلسفة موت الإنسان**، ترجمة جورج طرابيشي، ط3.دار الطليعة للطباعة والنشر، 1985م.

10- رومان ياكبسون، **الاتجاهات الأساسية في علم اللغة**، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، ط1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، 2002م.

11- زكريا إبراهيم (دكتور)، **مشكلات فلسفية مشكلة البنية (أو أضواء على البنيوية)**، ط مكتبة مصر- القاهرة، 1990م، سلسلة مشكلات فلسفية، كتاب رقم8.

12- عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمد محمد شاكر، ط1. مطبعة المدني- القاهرة، 1991م.

13- عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود محمد شاكر، ط5. مكتبة الخانجي- القاهرة، 2004م.

14- فرديناند دي سوسور، **علم اللغة العام**، ترجة يوئيل عزيز، ط دار آفاق عربية، بغداد، 1985م.

15- نعوم تشومسكي، **اللغة ومشكلات المعرفة**، (محاضرات ما ناجو)، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، ط1. دار توبقال، الدار البيضاء- المغرب، 1990م .

16- المبرّد (أبو العباس محمد بن يزيد، ت 285هـ)، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ج1.

17- المرزوقي(أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، ت 421هـ)، **شرح ديوان الحماسة**، تحقيق غريد الشيخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2003م.

18- ميجان الرويلي(دكتور) وسعد البازعي(دكتور)، **دليل الناقد الأدبي**، ط2. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، 2002م.

EDITORIAL